المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

الهجرة في المشرق الإسلامي زمن الحروب الصليبية

Migration in the Islamic East, during the time of the Crusades

د. وسيلة فراج

المدرسة العليا للأساتذة – بوزريعة – الجزائر

wassila.ferradj@ensb.dz

تاريخ الإرسال: 2021/11/04 تاريخ القبول: 2021/11/06 تاريخ النشر: 2022/01/31

الملخص:

عرف المشرق الاسلامي توترا سياسيا وحروبا طيلة قرون عديدة حيث شهد الحروب الصليبية التي برزت في القرن الخامس واستمرت حتى القرن الثامن ثم الهجوم المغولي على المنطقة مع سقوط عاصمة الدولة الاسلامية بغداد 656هـ/ 1258م، في ظل هذه الظروف توجه الكثير من سكان المنطقة في شكل هجرة جماعية نحو المناطق الآمنة هروبا من الحروب مما أدى إلى اختلال التوازن الديموغرافي وبروز مشاكل اجتماعية واقتصادية من جهة ومن جهة بروز فئة كبيرة من العلماء ساهموا في نقل ونشر العلم في أقطار إسلامية عديدة .

الكلمات المفتاحية: المشرق، الهجرة، الحروب، العلماء، الديمغرافيا.

Abstract:

The Islamic Orient has experienced political tension and wars for many centuries where it witnessed the crusades that emerged in the fifth century and then the Mongol attack on the region with the fall of the capital of the Islamic State Bagdad, under these circumstances many residents of the region in the form of a mass migration towards safe areas to escape the wars It led to the demographic imbalance and the emergence of social and economic problems on the one hand and the emergence of a large group of scientists who contributed to the transmission and dissemination of science in many Muslim countries .

Keywords:

Orient; Immigration; Wars; Scholars; demography.

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

مقدمة:

تعتبر الحروب الصليبية حملات نصرانية شنها الغرب الأوربي على الشرق الإسلامي ودامت نحو قرنين من الزمن، وسنوضح في هذا المقال أهم أسباب الهجرة في فترة الحروب الصليبية ومظاهرها وآثارها منذ القرن الخامس بما في ذلك الاعتداء الأجنبي على أراضيها كالاجتياح المغولي والذي أدى إلى هجرة جماعية كبيرة نحو بلاد الشام ومصر فماهي أهم أسباب الهجرة وماهي مظاهرها؟ كيف هاجرت الأسر وإلى أي وجهة ؟ وفي ما تمثلت أهم آثار الهجرة على العالم الإسلامي؟.

1- أسباب الهجرة:

من بين أهم أسباب لجوء الكثير من الأسر إلى أقطار إسلامية آمنة بعيدة عن الحروب والاعتداءات الأجنبية ما يأتي:

1.1-الحروب الصليبية :

تعرض العالم الإسلامي للحروب الصليبية وهي حملات نصرانية وجهت ضد الإسلام والمسلمين بدأت في المشرق أول مرة في بلاد الشام سنة (491هـ/ 1098م) ، حيث دخل الفرنج أنطاكية والرها ومعرة النعمان [1] ثم استولوا على بيت المقدس سنة (492 هـ/ 1098 م) وعلى عكا سنة (497 هـ/ 1103م) وفي سنة(**564هـ/ 1168 م**) قصد الفرنج الديار المصرية وحاصروا القاهرة وبعدها جاءت حملة صليبية أخرى لغزو عكا ثانية سنة (**587هـ/ 1191 م**) [2] فسقطت معظم أقطار المشرق بسبب هذه الحملات رغم جهود عماد الدين زنكي ونورالدين محمود وغيره لصدها ورغم نجاحهم في استرجاع عدة اقطار إلا أن الاعتداءات الصليبية دامت حتى القرن الثامن هجري ما أدى إلى هجرة الكثير من السكان نحو المناطق الآمنة .

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

2.1-الاجتياح المغولي:

بدأ الزحف المغولي على المنطقة منذ سنة 617هـ/1220م شملت حدود العراق حتى تركستان التي كانت تحت حكم الدولة الخوارزمية ثم توجهوا نحو العراق وأسقطوا الخلافة العباسية وواصلوا زحفهم بعدها نحو بلاد الشام حيث بطشوا بعلماء بلاد كردستان أفغانستان وبلاد فارس وتم تدمير ما كان في تلك البلاد من حضارة مما حمل بعض أهل تلك البلاد إلى أن يهربوا إلى مصر والشام [3].

ولقد دمر المغول المدن واحدة تلو الأخرى فلما دخلوا بخارى أمروا أهلها بالخروج من البلد فخرجوا حفاة عراة ودخلوا البلد .فنهبوا ما فيها وخربوا وقتلوا كل من وجدوه بها ودخلوا سمرقند ونهبوها وأحرقوا الجامع وكان لسقوط بغداد الكارثة الكبرى فقد استباحوها ونهبوا كل ما فيها [4] وكانت أعمال القتل والنهب، والمعروف عن المغول أنهم لم يرحموا أي شعب هاجموا بلاده [5].

3.1- سقوط بغداد:

سقطت على يد التتار وزالت بذلك الخلافة العباسية سنة 656 هـ 1258م حيث استطاع هولاكو الدخول إلى قصر الخلافة واستولى على كل أموال الدولة واستمر في قتل جميع الناس حتى الأطفال والنساء وقتل المغول العلماء وأتلفوا الكتب وقضوا على ما كان فيها من حضارة وتمدن مما أدى إلى لجوء بعض أهلها إلى المناطق المجاورة من بينهم الكثير من العلماء إلى مصر والشام للسلامة والأمان [6]

4.1- معركة عين جالوت 658هـ / 1260م:

حيث استطاع المماليك القضاء على المغول في موقعة عين جالوت فهربت جماعات كبيرة وتوافد مهاجرين من المغول نحو بلاد الشام وحاولوا بعدها اعادة الإغارة عليها طمعا في الاستلاء عليها لكن محاولاتهم كانت فاشلة بفضل قوة المماليك على عهد السلطان بيبرس.[7]

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

5.1- الرغبة في طلب العلم:

إلى جانب هذه الظروف السياسية رغبت الكثير من الأسر العلمية الهجرة إلى مناطق أكثر شهرة بالعلم في حواضر المشرق الاسلامي كدمشق وبغداد ومصر فالكثير من العائلات فضلت الهجرة نحو المناطق التي تشتهر بالعلم و العلماء

2- مظاهر الهجرة:

بدأت ظاهرة الهجرة منذ دخول الفرنجة إلى دمشق وبيت المقدس حيث بدأت الهجرة الجماعية من سنة 491 ه 1098 م مع غزو انطاكية وتوالت مراحل متتالية من هذه الهجرة مواكبة للغزوات الكبرى وانتهت بالاستلاء على صور سنة 518هـ / 1124م وقد انقسم المهاجرون الذين كانوا في أغلبيتهم من المسلمين إلى ثلاث مجموعات وذلك بالقياس بظروف هجرتهم نفسها ، وأول هذه المجموعات الثلاث هي تلك المكونة من الفارين من المذابح في العشر السنوات الأولى من الغزو واقتحام لبعض المدن والمذابح الأخرى التي قاموا بها في المدن التي استسلمت.

وصل الكثير من المهاجرين إلى الأراضي الاسلامية بعد المذابح الدامية والمجازر التي حدثت في انطاكية ومعرة النعمان سنة 491هـ/1098م وفي بلدة سروج وبلدة قيسارية سنة 494هـ/1101م وفي بعض المدن الأخرى قام الصليبيون بإنقاذ جماعات من السكان المحليين خاصة الضباط ورجال الصفوة كما حدث في القدس سنة 595هـ /1099م وعكا سنة 497هـ/1104م، أما ثاني هذه المجموعات فهي أكثرهن أهمية وهي مكونة من سكان المدن التي كانت قد استسلمت والتزم فيها الفرنجة بمواثيقهم بشأن الحفاظ على حياة السكان وكفالة حرية مغادرة هذه المدن ويبدوا أن معظم المسلمين قرروا حل الهجرة هذا، وقد وجدنا مثل هذه الحالات في السنوات الأولى لغزو الفرنج فعلى سبيل المثال نجد أرسوف سنة 494 هـ/1101م و وافامية سنة 499هـ/ 1106 وجبلة وعرقة سنة 1108م وطرابلس سنة 499هـ/ 1109م [8] .

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

وتتمثل المجموعة الثالثة من هؤلاء السكان الذين أخلو مدنهم بالكامل خوفا من غزو الفرنجة وآثروا اللجوء إلى المدن التي رأو أنها بعيدة عن خطر الغزو وهؤلاء هم سكان الرملة سنة 504هـ/1110م و ارتاح سنة 498هـ/1105م منبج بالس سنة 504 هـ/1110 م وهناك مجموعة من الحلبيين قد فروا إلى الجزيرة والعراق بعد غزو طرابلس سنة 499هـ/1109م هذه الهجرة الجماعية شملت جانب كبير من سكان دمشق وبيت المقدس .

وتعتبر هجرة بنو قدامة الذين استقروا بالصالحية والهجرة من نابلس من أهم الهجرات. ولم يكن سكان نابلس أول المهاجرين إلى دمشق فقد كانت دمشق وحلب أكبر تجمع للمهاجرين.

وقد كانت الأعداد المهاجرة إلى الجزيرة والعراق أقل بكثير ومعظم هذه المجموعات من منطقة الرها كذلك كانت الأعداد النازحة نحو عسقلان ومصر قليلة وهناك حالات من التجار والعلماء وجدوا أعمالا وسبلا للمعيشة في البلاد التي هاجروا إليها .

وتعد الصالحية الحالة الوحيدة المعروفة عن استقرار المهاجرين بصورة جماعية وإذا كانت هذه المنطقة قد ازدهرت وعمرت فلا يجب أن ننسى أن مهاجري نابلس قد عانوا في بداية الأمر وارتفع عدد الوفيات بينهم ورغم قساوة أحوالهم المعيشية فقد استقر المهاجرون في البلاد الاسلامية بصفة نهائية وأداروا ظهورهم للإمكانيات المقدمة لهم من طرف الفرنجة للعودة إلى مساقط رؤوسهم نستثني من ذلك بعض سكان مدينة صور القدامى الذين عادوا إلى بلادهم ودفعهم إلى ذلك حبهم للوطن الأم [9]

وكان لموقع بلاد الشام أثره في جعل هذه المنطقة مسرحا لكل الهجرات والحركات التاريخية الكبرى التي عرفها العالم القديم كما كان لهذه التفاعلات الأثر في قيام حضارات راقية التي عثرت عن نفسها في المنطقة التي تمتد من جبال طوروس في الشمال حتى بادية الشام جنوبا ومن الفرات شرقا حتى مياه البحر المتوسط غربا وداخل هذه المنطقة سكنت

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

أقوام وجماعات عديدة ساعدتها طبيعة التضاريس المتنوعة على أن تكون بمثابة متحف حي يدل على الأقوام والحضارات والأديان والمذاهب التي عرفتها بلاد الشام .

وعندما جاءت الحملات الصليبية كانت بلاد الشام تضم عناصر عربية تركية كردية وسوريانية فضلا عن الأرمن والبيزنطيين وبينما كانت العناصر العربية تشكل أغلبية السكان، أما الأتراك السلاجقة والتركمان تمثل العنصر السكاني الثاني بعد العرب في الأهمية وزادت أهميتهم بفضل نشاطهم العسكري والإمارات التي نجحوا في حكمها ببلاد الشام قبل وأثناء الحروب الصليبية، أما الأكراد كانوا موجودين بالمنطقة قبل وجود الصلبيين لكن زادت أهميتهم الاجتماعية بعد أن أصبحوا يمثلون أغلبية جيوش صلاح الدين مما أدى إلى اشتعال العلاقات بينهم وبين التركمان كذلك كان الدروز من العناصر السكانية الهامة في بلاد الشام ورغم مشاركتهم في الحرب ضد الصليبيين إلا أنهم عاشوا حياة أقرب إلى العزلة، وقد تحدث الرحالة الذين زاروا الشام أثناء الحروب الصليبية عن مدى تعدد الأجناس فيها وأن تنوع العناصر السكانية أدى إلى تنوع الديانات والمذاهب و تواجد الصليبين أدى إلى جعل التركيبة غير مستقرة بسبب المذابح والجرائم والتهجير والاستيطان وإعادة التوطين حيث تحولت الأقليات إلى أغلبيات في معظم المناطق [10].

وإن سكان الشام في عصر الحروب الصليبية كان حوالي مليونان وسبعمئة نسمة حسب تقديرات الباحثين والواقع أن بلاد الشام أثناء القرن 6ه- 12 م في بداية الحملة كانت قد فقدت الكثير من سكانها نتيجة المذابح الصليبية ونتيجة الهجرات الإجبارية التي تصحب الاستلاء على كل مدينة وكان من أسباب السيولة السكانية عمليات التفريغ السكانية والإحلال السكاني أي زرع مستوطنون جدد محل السكان الأصليين، فعندما تمكن الصليبيون من الاستلاء على القدس أخرجوا منها المسلمين واليهود الذين راحوا ضحية مذبحة مروعة، بعدها المسلمون المهاجرون من الشام وفلسطين عادوا إلى مدنهم للإقامة بعد الاستقرار والنمو الاقتصادي ومن ناحية أخرى كانت الهجرة من بلاد الشام نحو مصر سببا في ازدياد عدد السكان وحقيقة تعرضت مصر لهجمات الصليبية على أراضيها أدت إلى هجرات داخلية

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

وعندما تولى المماليك حكم مصر أصبحت مكان آمن و نلاحظ أن المهاجرين من الشام نحو مصر عوضوا النقص الفادح في السكان [11]

ومن أهم القبائل التي نزحت إلى مصر في عصر الدولة الأيوبية قبائل جذام اليمنية حيث تمركزت بالحوف الشرقي إلى أن أصدر صلاح الدين الأيوبي أوامره لهم بالانتقال للبحيرة ، لأنهم كانوا يمتهنون التجارة مع صليبي بلاد الشام ، وهذا ما كان يرفضه صلاح الدين الأيوبي وظل منهم عدد قليل بالشرقية فضلا عن تواجد قبائل عربية بقوة في منطقة البحيرة غربي النيل فقد تواجد منهم في العصر الأيوبي بنو سنبس وهم من القحطانية هاجروا من فلسطين إلى مصر واستقروا بها في عهد الدولة الفاطمية تقريبا وبقيت في البحيرة طوال العصر الأيوبي ووجدت بعض القبائل التي تنسب لبلاد المغرب ومنهم هوارة ولواتة والذين نزحوا بالبحيرة في عهد الدولة الفاطمية وظل تواجدهم في عصر الدولة الأيوبية، في الصعيد برزت قبائل بلي وجهينة وكنز الدولة وبني هلال الذين توافدوا بكثرة إلى مصر في العهد الفاطمي في عهد الخليفة العزيز بالله سنة 368ه/929م استقروا بالعدوة الشرقية للنيل إلى أن أغراهم الخليفة المستنصر بالله بالهجرة للمغرب سنة 427هـ/1036م نظرا لشغبهم وتسلطهم في بلاد الصعيد وقد تمركزت هذه القبائل في عصر الدولة الأيوبية بقوص بالصعيد الأعلى، وظل وضع القبائل العربية عصر المماليك كما كانت عليه في العصور السابقة [12]

وكان الاجتياح المغولي قد أدى إلى ازدياد حركة الهجرة إلى مصر فكلما سمع سكان المنطقة بقدوم حملة عسكرية مغولية كانت قوافل المهاجرين تعير إلى مصر خوفا على حياتهم وأموالهم وكانت هذه الهجرات تتم بشكل فردي أو جماعي وكانت الموجة الأولى الكبيرة من المهاجرين من بلاد الشام يهاجرون باتجاه مصر إثر دخول هولاكو لبلاد الشام فقد هاجر جزء من سكان دمشق خوفا من سطوة هولاكو بعد أن عرفوا ما فعله بالعراق وقد عان هؤلاء المهاجرون كثيرا من مشقات الطريق اذ كان زمن الشتاء فمات كثير منهم إضافة إلى تعرض الكثير منهم للنهب فهاجروا.

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

كما استقبلت مصر عدد من المهاجريين إثر موقعة عين جالوت 658هـ/1260م كما ذكرنا سابقا. فكان المهاجرين من عامة الناس كما كانوا من الأمراء ، وعند سماع أهالي دمشق سنة 679ه1280/ بمهاجمة المغول لحلب وقتل سكانها تتابعت قوافل المهاجرين إلى مصر من جديد ، وبعدها توجه الزعيم المغولي غازان في حملة سنة 699هـ 1299م إلى الشام فتخوف السكان وتوجه الكثير من أهل دمشق نحو مصر ومعهم الكثير من التركمان والعجم والعرب ومن كافة مدن الشام كحلب وحمص والساحل وكان المهاجرون من أجناس مختلفة وقام الشيخ ابن تيمية بتهدئة السكان وحثهم على الجهاد ضد المغول لكن هذا لم يمنع السكان من الرحيل نحو مصر حيث نزح الكثير من العلماء و المفكرين أمثال رشيد الدين اسماعيل بن عثمان القرشي الدمشقي وغيره [13].

وبعدها أخر غازان الرحلة بسبب ظروف جوية وبعدها جاء خطر تيمورلنك الغازي نحو المناطق الشمالية قسم كبير نحو مصر وممن هاجر من العلماء في هذه الوقعة كمال الدين بن العديم حيث كان معتقلا في قلعة حلب فلما أفرج عنه تيمورلنك خرج إلى أريحا ثم إلى مصر وتولى هناك عدة مناصب ، وعلي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي المعروف بابن اللحام وأحمد بن محمد ين قماقم الفقاعي شهاب الدين كان أبوه فقاعيا فاشتغل هو بالعلم وابراهيم بن محمد بن هادر بن أحمد القرشي الغزي توفي سنة 810هـ /1407م [14]

أما الهجرات التي هاجرت إلى مصر فتنقسم إلى عدة فئات:

أ- فئات الفقراء وعامة الشعب

ب- فئات العلماء أكثرهم هاجروا نحو مصر منهم عبد الرحيم بن عبد الرحيم توفي سنة 670هـ/1271م تولى نظر الجامع بحلب سنة 649هـ/1251م وكذلك البيمارستان والصدر علاء الدين أبو الحسن بن الشيخ منتجب الدين محمد بن نصر الله الحلبي توفي سنة 647هـ/1275م هاجر إلى مصر وسكنها وأقام بها سنة 1264/663م فطلبه المنصور صاحب حماه فتوجه إليه واستوزره.

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

والشيخ أبو حامد الحسن بن عماد الدين علي بن الحافظ بهاء الدين القاسم بن الحافظ خرج من دمشق نحو مصر توفي سنة 658هـ / 1260م ونجم الدين البعلبكي توفي سنة 731هـ/1230م توفي بالمدرسة الصارمية كتب ونسخ وحصل الكتب وتوجه نحو مصر مهاجرا سنة 702ه /1302م ومروان بن نيروز بن حسن كان ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية خرج إلى حلب وأقام بها حتى وقعة المغول ضد مصر فوصلها وأثناء غزو غازان هاجر جماعة من أعيان دمشق إلى مصر كالقاضي إمام الدين الشافعي وتاج الدين الشيرازي وعلم الدين الصوفي وغيره حتى بقيت دمشق شاغرة ليس فيها حاكم ولا رادع سوى نائب القلعة أرجواش .

أما فئة الملوك والأمراء والأعيان وحاشيتهم اذ كان الأمراء يبعثون بنسائهم وأولادهم إلى مصر عند اقتراب الخطر المغولي منهم وهذا ما حصل سنة 657ه/ 1258مـ ووصل إلى مصر أهل الملك الناصر وأهل أخيه الملك الناصر فأحسن استقبالهم الظاهر بيبرس وأمدهم ببعض النفقات والإقامات [15] .

ج- فئة الجند والقادة الذين انهزموا في المعارك أمام المغول وهذا ما حصل عندما أخفق أقام بها المهاجرون بتقديم المساعدة المؤقتة لهم .

أما عن الهجرات المغولية فقد شهدت الشام هجرات مغولية وتعددت الأسباب منها السياسية المتمثلة في الصراع والحروب بين الأمراء والسلاطين ولم تقتصر هذه الصراعات والحروب على المجتمع المغولي بل تعدتها لتشمل المناطق التي خضعت لهم وترتب عليها ازدياد تجارة الرقيق وهجرة أقوام وطوائف من الأجناس التي خضعت للمغول أو من المغول أنفسهم وغلاء المعيشة وانتشار الأمراض أدت إلى ارتفاع عدد الهجرات نحو الشام وكثرت الهجرات المغولية خاصة القرن السابع هجري فقد وفدوا إثر معركة عين جالوت سنة 658ه/1260م حيث توافد المهاجرون في ثلاث دفعات ففي سنة 601هـ/1240م حوالي1300 فارس من المغول والبهادرية من الشام نحو مصر أما الدفعة الثانية ضمت الكثير من أعيان المغول مثل كرمون أمطاغية نوكية جبرك قيان ناضغية طبشور حيث رحب السلطان بهم وعرضوا عليهم الاسلام فأسلموا [16] .

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

3- أشهر الأسر المهاجرة:

هاجرت عدة أسر مشهورة نحو عدة وجهات هروبا من الحروب والفتن من أشهرها :

1.3- هجرة آل تيمية من حران إلى دمشق :

أول من هاجر منهم عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر والد شيخ الاسلام بن تيمية توفي سنة 682هـ/ 1283م قرأ المذهب على والده ودرس وأفتى وصنف وصار شيخ البلد بعد أبيه وخطيبه وحاكمه وكان إماما محققا لما ينقله، كثير الفوائد جيد المشاركة في العلوم له يد طولي في الفرائض والحساب والهيئة وكان قدومه إلى دمشق بأهله وأقاربه مهاجرا سنة 667 هـ/1268م وكان له 3 أولاد أحمد بن عبد الحليم بن تيمية أبو العباس توفي سنة 728هـ/1327م العالم، المفسر، الفقيه، المحدث... شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن العالم المفتي شهاب الدين عبد الحليم الحراني وهاجر به أبوه وأقاربه من حران إلى دمشق سنة 667هـ/1268م عند جور التتار منهزمين في الليل يجرون الذرية والكتب على عجلة فإن العدو ما ترك في البلد دواب سوى بقر الحرث [17]، وقد لاقوا في هجرتهم متاعب ومصاعب كثيرة لولا عناية الله عز وجل أن وصّلهم بالسلامة. وصل بن تيمية إلى دمشق وهو طفل صغير وكان والده من كبار علماء الحنابلة [18]

2.3-هجرة آل غزي:

تعتبر أسرة بني غزي العامري من بيوتات الحديث المشهورة استمر عطائهم العلمي من القرن8 هـ حتى القرن11 ه تميز هذا البيت بالعلم والتعليم وتولي التدريس والافتاء ومناصب القضاء ويرجع نسبهم إلى أحمد بن عبد الله بن بدر بن مفرج بن بدري بن عثمان بن جابر بن ثعلب بن ضوي ينتهي نسبهم إلى لؤي بن غالب أخ كعب بن لؤي جد النبي صلى الله عليه وسلم وأول من هاجر من غزة إلى دمشق هو الشهاب أحمد الغزي ،وتمت هجرة الشهاب أحمد من غزة إلى دمشق حوالي سنة 779هـ /1377م ولا يفصح المترجمون عن أسباب الهجرة إلى دمشق فقد تكون الرغبة الشديدة في استقصاء طلب العلم هي التي دفعته للهجرة على عادة علماء ذلك العصر يضاف إلى ذلك حبه للشهرة وتسلم المناصب الدينية الرفيعة لأن غزة في ذلك العصر كانت بلدة صغيرة لا تحقق له المجد

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

العلمي الذي كان يرجوه مقارنة مع مدينة دمشق التي كانت تعتبر أنذاك العاصمة الثانية للمماليك بعد القاهرة ويدعم ذلك ما توصل إليه الشهاب من مقام محمود بعد هجرته إليها إذ تولى رفع المناصب الدينية بدمشق بل تفرد برئاسة الفتوى فيها كما تولى نظر البيمارستان النوري وهو من المناصب الديوانية الكبيرة بدمشق [19].

3.3-هجرة المقادسة إلى دمشق :

هاجر المقادسة إلى دمشق سنة 551هـ/ 1156م بعد استلاء الفرنج على بيت المقدس وأكثرهم أسر علمية أشهرها أسرة بنو قدامة حيث هاجر محمد بن قدامة العالم الزاهد توفي سنة 585هـ /1163م إلى دمشق مع عائلته ونزلوا بمسجد أبا صالح [20] بظاهر الباب الشرقي ثم صعدوا جبل قاسيون وكانوا يعرفون بسكان الصالحية نسبة لمسجد أبي صالح واشتهر منهم أبو عمر المقدسي الحنبلي توفي سنة 620هـ/ 1210م وأخوه موفق الدين بن قدامة المقدسي الدمشقي الصالحي الحنبلي توفي سنة 620هـ/ 1223م الذي اشتهر بالعلم والتصنيف وأصبحت الصالحية مركز تجمع كبير للسكان حيث ازداد عدد المهاجرين وشيدت الدور والمساجد فعمرت بالعلماء والزهاد و أصبح جبل قاسيون الذي كان مهجورا معمورا بسكان الصالحية [21].

4.3-<u>هجرة أولاد الشيخ</u>:

هم من خرسان موطنهم الأصلي نيسابور ولعلهم من جوين لإلحاق اسم الجويني في نهاية اسمائهم اشتهر أفرادها بالعلم والصلاح والتصوف أقدم افرادها الصوفي محمد بن حمويه الذي اشتهر بعلمه وفقهه وتوفي سنة 530 هـ /1135م هاجر فرع من هذه العائلة للشام وآخر لبغداد وأصبح الفرع الذي بالشام و مصر نفوذ كبير زمن صلاح الدين وكان لهم دور في تنوير الناس ونشر العلم وكان لهم مساهمة واضحة من خلال الخوانق والربط المنتشرة في الشام ومصر والمرتبطة بالحركات الصوفية ساعد على نجاحها الاهتمام الكبير الذي حضيت به هذه الطائفة من السلطة السياسية أنذاك بدءا بنور الدين محمود في الشام مرورا بالدولة الأيوبية ممثلة بصلاح الدين وخلفائه من بعده وشهدت مصر إنشاء الخوانق وتعيين رئيس للصوفية للإشراف على شؤونهم وتلقيبه بشيخ الشيوخ [22]

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

وقد برز من بين الطوائف الصوفية أسرة فارسية الأصل عرفت بأسرة شيخ الشيوخ من بني حمويه واشتهر منهم ما تعارف المؤرخون على تسميتهم بأولاد الشيخ الذين امتد نشاطهم بين العراق ومصر والشام ويعود السبب في شهرتها إلى مساهمتها في المجالين السياسي والتعليمي خلال العصر الأيوبي أما فيما يتعلق بالناحية التعليمية لهذه الأسرة في مصر والشام فقد ظهرت واضحة برياسة عدد من أفرادها العديد من المؤسسات الدينية والتعليمية المرتبطة بالصوفية كالخوانق والربط اذ تعاقب عدد منهم على تقلد وظيفة مشيخة الشيوخ والتي يعرف صاحبها بشيخ الشيوخ وقد عدت من المناصب الدينية والعلمية الرفيعة والتي جرى العرف أن يكون متوليها من أكابر الدولة وأعيانها وممن عرف بغزارة علمه كما شارك علماء أسرة شيخ الشيوخ في الناحية التعليمية من خلال التدريس بالمدارس كالمشهد الحسيني والتدريس بالشافعية [23] .

ويقال أن كل من كان شيخا للخانقاه كان يعرف بشيخ الشيوخ ويعد شيخ الشيوخ أبو الفتح عماد الدين عمر بن علي الصوفي من أبرز علماء هذه الأسرة في الشام زمن نور الدين الزنكي وقد كان يحظى باحترامه وتقديره حتى ولاه سنة 564هـ/1168م مشيخة الشيوخ على الصوفية فأشرف من خلالها على أمر الربط وزوايا والأوقاف وشملت ولايته دمشق وحماه وحلب وحمص وبعلبك وتسمى بشيخ الشيوخ وبرغم من ترأسه لمشيخة الشيوخ في الشام إ لا أنه مارس التعليم بنفسه من خلال تدريسه الحديث بديرة السميساطي، كان منصب مشيخة الشيوخ حكرا طيلة العصر الأيوبي، فبعد وفاة شيخ الشيوخ عمر سنة 577هـ/1181م قام صلاح الدين بتولية مشيخة شيخ الشيوخ بدمشق لولده محمد توفي سنة 617هـ/1220م هو أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه الجويني الصوفي عمل مدرسا ومفتيا وتلقب بشيخ الشيوخ صدر الدين بلغ مكانة علمية رفيعة ساهمت بشكل كبير في توسيع نشاطه التعليمي أثناء الغزو الفرنجي خاصة أنه كان من كبار فقهاء الشافعية فتولى التدريس في الزاوية الغربية بجامع دمشق كما درس بمدرسة جاروخ ثم انتقل إلى مصر زمن صلاح الدين وأخيه العادل فأسندت إليه مشيخة الشيوخ في دار سعيد السعداء والتي كانت أول خانقاه تنشأ في مصر سنة 569هـ/1173م كما أسند إليه صلاح الدين أمر الصلاحية سنة

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

587ه/ـ1191م وقد رأى البعض أن علاقة الصداقة التي كانت تربطه بالملك العادل كانت سببا في بلوغه ما بلغه في مصر حيث ولاه العادل المناصب التي كانت له بدمشق فأوكل إليه النظر في الخانقاه الكبرى بدار سعيد السعداء كما ولى أمر تدريس في الشافعي والمشهد الحسيني وأسهم أولاده الأربعة من بعده الشيخ عماد الدين والصاحب كمال الدين والأمير معين الدين والأمير فخر الدين في الحركة التعليمية بتقلدهم المؤسسات التعليمية التي كانت لوالدهم وقد شاركت هذه الأسرة في محاربة الفرنج خاصة فخر الدين [24].

تنوعت مساهمات أولاد شيخ الشيوخ صدر الين محمد أثناء فترة الغزو الفرنجي لمصر وبلاد الشام إلا أن مساهماتهم في الجانب السياسي والعسكري كانت أكثر وضوحا وقد كان لمعين الدين بن الشيخ دور كبير في حصار دمشق عام 642هـ/1244 على إثر الوقعة التي حدثت بين الخوارزمية وعساكر الملك الصالح نجم الدين صاحب مصر من جهة والصالح اسماعيل صاحب دمشق والناصر داوود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص يساندهم جيش الفرنج حيث كان لقائهما في أريحا وكانت عساكر الفرنج في الميمنة في حين عساكر الملك الناصر في الميسرة وكانت جيوش المسلمين تتبع جيش الفرنج وقد كسر الفرنج في هذه الوقعة على إثر هزيمة الفرنج ومن معهم من جيوش الشام جهز الصالح نجم الدين أيوب الأمير معين الدين بن الشيخ وأمره بحصار دمشق فتقدم بعساكره وكتب إلى ملوك خوارزم للسير معه فساروا إلى دمشق وحاصروها حصارا شديدا وقد استمر حصاره لدمشق لعدة أشهر حيث نصبت المنجنيقات وتقاتل الفريقان حتى أرسل الصالح اسماعيل لمعين الدين سجادة وعكازا وابريقا وقال له اشتغل بها أولى من اشتغالك بقتل الملوك تقليلا من شأنه وإشارة إلى أن الحرب ليس من اختصاصه لأنه من العلماء الصوفية ورجال الدين إلا أنهم اتفقوا على تسليم دمشق والقلعة لمعين الدين على أن يكون للملك الصالح اسماعيل ما كان له أصلا كبعلبك وبصرى برز عالم آخر من أولاد الشيوخ وهو الأمير فخر الدين يوسف الذي خرج عن نطاق التدريس والعلوم الدينية والحياة العلمية إلى المشاركة في مضمار الحكم والسياسة فقد عهد إليه الملك الصالح نجم الدين أيوب مهمة الاستلاء على عسقلان وطبرية

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

من الفرنج سنة 645هـ/1247 فجهزه وجرد معه العساكر وأمره بالمسير فنزل عسقلان وفتحها بعد حصار شديد لها ثم خربها و رحل بعدها لفتح طبرية حتى تم له ذلك [25]

ومن العلماء الذين اشتهروا بنشاطهم السياسي أثناء غزو الفرنج للمشرق الاسلامي شيخ الشيوخ صدر الدين محمد الذي برز دوره واضحا عندما تعرضت مصر لغزو الفرنج سنة 615هـ/1218م حيث كان بمثابة رسول طواف بين البلاد يرص صفوفها ويدعوها للمقاومة وتمثل ذلك بداية بإرسال الملك الكامل له رسولا إلى أبيه الملك العادل في مرج الصفر لإخباره بأخذ الفرنج لبرج السلسلة بدمياط والاستنجاد به فاجتمع به وأعلمه بالأمر فمرض على اثرها ثم كلفه الملك الكامل بمهمة أخرى أكثر خطورة بأن بعثه رسولا للخليفة العباسي للاستنجاد به على الفرنج سنة 617هـ/1220م إلا أن توفي في العام نفسه بالموصل وقد ذكر ابن واصل أنه كان يحمل رسالة أخرى لصاحب الموصل للغرض نفسه وهذا يعني أنه بعد أن انتهى من ابلاغ الخليفة العباسي أنباء سقوط دمياط بيد الفرنج غادر بغداد ليطوف بعدد من البلدان الاسلامية الشرقية في جولة دبلوماسية لحشد الطاقات بقصد حث أمراء المسلمين وملوكهم المسلمين على الوقوف إلى جانب أهل مصر ضد الحملة الصليبية الموجهة ضدهم[26]

4- آثار الهجرة:

كان للهجرات السابقة آثار إيجابية وأخرى سلبية منها:

من أهم الآثار الإيجابية وفود الكثير من العلماء والأدباء إلى مصر والشام من البلاد الإسلامية سواء كانوا من المشرق الإسلامي أو من الأندلس والمغرب وذلك بسبب الاحتلال التتري والغزو الصليبي بالمشرق وبسبب حملات الفرنجة على الأندلس أو بسبب طغيان وظلم وقع في بلادهم.

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

وأصبحت مصر هي المعقل الأساسي للحضارة العربية الاسلامية وذلك لتوافد االمهاجرين إليها من علماء وفقهاء الهاربين من الظروف السياسية والاجتماعية المتردية في المشرق والمغرب واتجهت أعمال أغلبية العلماء إلى جمع الموسوعات الضخمة التي لم تترك لا صغيرة ولا كبيرة إلا ودونتها ورغم التدهور التاريخي والثقافي إلا أن حركة التدوين كانت مزدهرة ووصلت الكتابة التاريخية إلى أرقى مستوى مع التنوع والثراء التاريخي انتشرت هنا ظاهرة الذيول استكمالا وذيلا لكتاب مشهور أو كتاب غير مكمول [27]

إلى جانب ازدهار العلم وانتشاره وبروز الكثير من العلماء ،وقد تولى هؤلاء العلماء التأليف والتدريس في عهد دولة المماليك ومن هؤلاء ابن خلكان الإربلي، ابن مالك الأندلسي، ابن ابي حجلة المغربي، ابن منظور الافريقي، ابن خلدون المغربي، الحافظ رشيد الدين النابلسي، والبكري ابو الحسن بن محمد النيسابوري، وسعد الدين العراقي، وكمال الدين بن النديم، وموفق الدين بن قدامى وعبد الكريم الرافعي وابن مالك النحوي وتقي الدين بن صلاح وابن حاجب والعز بن عبد السلام ومحمد الطوسي ومحي الدين النووي وبن تيمية والذهبي وابن القيم وعلي بن داوود بن جنادة شيخ العربية الذي هاجر سنة 702هـ/1302م إثر سماعه بقدوم المغول والكثير من العلماء كان لهم دورا سياسيا في مكافحة الفرنج زمن الحروب الصليبية امثال أسرة شيخ الشيوخ كما ذكرنا .

أما عن الآثار السلبية لهذه الهجرات أن أدت إلى الإخلال بالتوزيع الديموغرافي للسكان في المنطقة فهاجر الفلاحون أرضهم وأصحاب الحرف حرفهم والتجار تجارتهم مما أدى إلى تضرر الاقتصاد إلى جانب ركود معاقل العلم والثقافة مما أدى إلى خسارة بلاد الشام مكانتها الثقافية المتميزة وأدت هذه الهجرات إلى ظهور الحرافيش من الفلاحين الذين قدموا من القرى ولجؤوا للزوايا وكثرة قيامهم بأعمال السلب والنهب في المدن الخالية من السكان ولقد كان للهجرات أسوء الأثر في مسيرة التقدم الحضاري للمجتمع فخلو أي منطقة من علمائها ومفكريها يجعل الظلام والتخلف والجهل يسودها [28].

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

وأما بالنسبة لمصر فقد كانت الهجرات أثر سلبي فالأثر السلبي تجلى في أن المهاجريين شكلوا عبئا إضافيا على السلطة المملوكية في مصر التي دفعت أحيانا نفقات اقامتهم من خزائنها كما أدت إلى نقص بعض المواد الأساسية فأدى إلى ارتفاع أسعار المواد المفقودة وهذا ما عاد بالضرر على السكان المحليين الذين أرهق كاهلهم فرض ضرائب جديدة وفي نفس الجانب هناك الأثر الإيجابي الذي تجلى في نقل بعض العادات وطبائع ايجابية اللباس والطعام والعادات الأخرى في الأفراح والأحزان كما كونت هذه الهجرات صلات أسرية مع المجتمع المصري .

وكان في صفوف المهاجريين البعض من مهرة الصناع الحرفيين حيث استفاد منهم المجتمع المصري في مجال البناء والتجارة والمهن اليدوية الأخرى وبالتالي فإن هذه الهجرات اضافت أشياء جديدة في الحياة العلمية والفكرية والاجتماعية للمجتمع المصري .

غير أن السلاطين سرعان ما أدركوا خطورة الهجرات فكانوا يقومون بإعادة المهاجرين في بعض الأحيان والقيام بمشاريع إصلاحية في مناطقهم التي هاجروا منها وتأمين سبل الحياة فيها مما يحفزهم للعودة إلى موطنهم لكن سلطة العثمانية لم تعط المماليك فرصة لإتمام أعمالهم [29].

5/- استنتاج:

يتبين لنا مما سبق أن الهجرات التي عرفها المشرق الاسلامي معظمها كانت لأسباب سياسية على رأسها الحروب الصليبية والاجتياح المغولي إلى جانب أسباب أخرى وقد شملت هجرة أهالي مصر والشام وبغداد بحثا عن الاستقرار والأمن و امتدت حتى القرن الثامن للهجرة وقد أدت إلى اختلال التوازن الديموغرافي وافراغ بعض المناطق من علمائها من جهة ومن جهة أخرى ساهمت في تعمير بعض المناطق وتحولها الى حواضر علمية مثل الصالحية بدمشق كما ساهمت في تطوير المناطق المهاجر اليها مثل مصر التي أصبحت تعج بالعلم والعلماء .

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

6/- خاتمة:

إن الحروب الصليبية كانت وبالا على البلاد الإسلامية فقد خلفت آثار سياسية واخرى اقتصادية واجتماعية فلم تترك مجالا لازدهار الحضارة الإسلامية اذ كان المسلمون شغلهم الشاغل حماية الديار الإسلامية فقد جابهوا الحملات الصليبية بأموالهم وانفسهم .

وعلى الرغم من هذه المعاناة وهذه الحملات التي فرضت على سكان الثغور، هجرات كثيرة في عدة أمصار فقد حملوا راية العلم اينما حلوا تعلما وتعليما، وكانت لهذه الهجرة القصرية أثرا كبيرا على الدور والعمران حيث تطورت حواضر علمية وحضارية وظهرت أخرى.

7/- الهوامش:

[1] – ابن كثير، البداية والنهاية، دار المعارف، ج 12، ص 155.

[2]– المصدر نفسه، ج12، ص 156. 163.

[3] – محمد قايد حسن الوجيه، 2015، " الأثر الحضاري للغزو المغولي للمشرق الإسلامي 617–803هـ" ، مجلة جامعة الناصر، مج 2، العدد السادس، ص457.

[4]– المرجع نفسه ص459.

[5]– الحملات المغولية و آثارها الاجتماعية، ص 124.

[6]– أحمد عودات وجميل بيضون وشحادة الناطور : تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع حتى الثالث عشر، 1990م ، دار الكندي إربد، ص32

[7]– فؤاد عبد المعطي صياد: المغول في التاريخ، 1980م ، بيروت، دار النهضة العربية، ج1، ص320.

[8]- حسن عبد الوهاب حسين: مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، 1997، دار المعرفة الجامعية، ص79–80.

[9]– المرجع نفسه، ص88 .

[10]– قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، 1990، الكويت، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب والفنون، ص165–185.

[11]– نهلة أنيس محمد مصطفى: الهجرات العربية إلى مصر وأثرها في اللهجة المصرية وأثر ذلك على المجتمع، ص269–272.

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

[12]–المرجع نفسه

[13]– اكتمال إسماعيل: الآثار الاجتماعية والاقتصادية للحملات المغولية على بلاد الشام 1250–1400، دار رسلان، ص124.

[14] – المرجع نفسه، ص 126.

[15]– المرجع نفسه، ص 130.

[16] – ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت دار الكتب العلمية ج3 ص80. وعبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، 1990م، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ج1، ص58 وص479 و محمد بن عزوز: بيوتات الحديث بدمشق، 2004، ط1، دمشق، دار الفكر.

[17]– محمد بن عزوز: المرجع السابق، ص117

[18]– نفسه.

[19]– صالح بن سعيد بن هلابي : لمحات تاريخية من حياة ابن تيمية ، ج 4، ص 108.

[20]– مسجد ابي صالح : نسبة لواقفه مفلح بن عبد الله أبو صالح المتعب توفي سنة 330 وهو موجود بظاهر باب الشرقي بدمشق / ابن كثير : البداية والنهاية ، بيروت، مكتبة المعارف ، ج11 ،ص205.

[21]– ابن العماد الحنبلي : المصدر السابق ، ج3 ، ص 80 و324 وعبد القادر النعيمي : الدارس ،ج1 ، ص58 وابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، حيدر اباد الهند ، مطبعة مجلس الغدارة المعارف العثمانية، ج2 ، ص256.

[22] – لؤي بواعنة : دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي الصليبي للمشرق الاسلامي 490–648هـ/1097–1250م، 2006 ، الاردن ، دار اليازوري العلمية ، ص 113–115.

[23]–حمد بن عزوز : المرجع السابق ، ص117.

[24] –المرجع نفسه، ص 270.

[25]– المرجع نفسه ،ص327–328.

[26]– محمد رامز عبد الفتاح مصطفى العزنيزي: تقي الدين ابن دقيق العيد حياته وعصره، 1990، ط1، الأردن، دار البشير للنشر والتوزيع، ص457 .

[27]– قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، 1990، الكويت، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب والفنون، ص165 – 185.

[28]– محمد رامز عبد الفتاح مصطفى العزنيزي : المرجع السابق ،ص45 .

[29]– اكتمال اسماعيل: المرجع السابق ،ص129 .

المجلد: (13) العدد: (02) السنة: 2022 صفحات المقال: 209-227 ISSN :9577-1112 EISSN : 2602-5388

8/ــ قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر

1- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، حيدر اباد الهند، مطبعة مجلس الغدارة، المعارف العثمانية ج2.

2- ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، ج 11.

3- ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية.

4- عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس 1990م، ط1 بيروت، دار الكتب العلمية.

ثانيا: المراجع

1- إكتمال إسماعيل، الآثار الاجتماعية والاقتصادية للحملات المغولية على بلاد الشام 1250-1400، دار رسلان.

2- حسن عبد الوهاب حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ،دار المعرفة الجامعية، 1997م.

3- صالح بن سعيد بن هلابي، لمحات تاريخية من حياة ابن تيمية ،ج4.

4- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، 1990م، الكويت، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب والفنون.

5- لؤي بواعنة، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي الصليبي للمشرق الاسلامي (490-648هـ/1097-1250م)، 2006م الأردن، دار اليازوري العلمية.

6- محمد بن عزوز، بيوتات الحديث بدمشق 2004م، ط1، دار الفكر، دمشق.

7- محمد رامز عبد الفتاح مصطفى العزنيزي، تقي الدين ابن دقيق العيد حياته وعصره 1990م، ط1، الأردن، دار البشير للنشر والتوزيع.

8- نهلة أنيس محمد مصطفى، الهجرات العربية إلى مصر وأثرها في اللهجة المصرية وأثر ذلك على المجتمع محافظة الشرقية نموذجا.

ثالثا: المجلات

1- محمد قايد حسن الوجيه، 2015م، الأثر الحضاري للغزو المغولي للمشرق الإسلامي 617-803هـ، مجلة جامعة الناصر، العدد السادس، ديسمبر، مج 2.